



جامعة الشهيد حميدان - الوادي
كلية العلوم الإسلامية



بالتعاون مع : مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس

الندوة العلمية الدولية :

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي

التنمية الاجتماعية والثقافية

الأربعاء والخميس : 30 و 31 أكتوبر 2024م

الأسئلة الثقافية الكبرى من منظور مالك بن نبي

– دراسة تحليلية –

د/ بلال بوسنة

كلية العلوم الإسلامية جامعة الوادي (الجزائر).

boussena-billel@univ-eloued.dz

مقدمة:

تعتبر الثقافة مشغلا بحثيا طُرح و يبقى مطروحا على الساحة الفكرية لما لها من تأثيرات بالغة في توجيه سلوك الأفراد والمجتمعات ، فهي الإطار الذي تنتظم وفقه كل شيء، لكن ثمة إشكال كبير في تشكيل ذلك الإطار ناتج عن اختلاف في المنطلقات المؤسسة للثقافة، فهناك منطلقات غربية للثقافة كما توجد منطلقات إسلامية توحيدية؛ من هذه الأخيرة نبت مفكر وفيلسوف جزائري اسمه مالك بن نبي كرّس جهوده في دراسة المشاكل التي تواجه الإنسان وكل ذلك عزم في المساهمة في صناعة التحضر، ولعل أبرز المشاكل التي واجهت الإنسان من منظور

مالك بن نبي هي مشكلة الثقافة، وهذا ما دفعنا لاختيار موضوع ورقة بحثنا والموسوم بـ :
"علاقة الثقافة بالمجتمع من منظور مالك بن نبي"

أهمية البحث:

تكتسي أهمية بحثنا في كونه يعرّفنا على أحد أساطين الفكر الجزائري المعاصر هذا من جهة عملية الإحياء، من جهة ثانية يعالج أبرز إشكالية تواجه المجتمع والمتمثلة في الثقافة وكيفية صناعتها ومعايشتها وبالتالي فإنّ مالك بن نبي كان أحد المنظرين لهذا الموضوع وبالتالي فإنّ طرح مثل هكذا مواضيع يعد ضرورة ملحة.

أهداف البحث:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية أن نصل إلى عدة أهداف مرجوة تمثلت في الآتي:

- معرفة الخلفية الثقافية التي نبت فيها مالك بن نبي وتبين مميزاتها.
- معالجة أكبر إشكالية تواجه العالم الإسلامي في الفترة المعاصرة والمتمثلة في الثقافة.
- إعادة إحياء فكر مالك بن نبي وتفعيله في المجتمع.
- تبيان الكيفية التي عالج بها مالك بن نبي مشكلة الثقافة ومحاولة البناء عليها.

إشكالية البحث:

حاولنا من خلال هذا الموضوع أن نعالج الإشكالية التالية: إلى أي مدى استطاع مالك بن نبي أن يشخص مشكلة الثقافة؟ من الإشكالية فرعنا ثلاث تساؤلات، اثنين منهما طرحهما مالك بن نبي وهما لب الموضوع وأساسه تمثلا فيما يلي:

- ماهي الثقافة؟ وكيف يتم إعدادها؟

أما السؤال الثالث خص مالك بن نبي: من هو مالك بن نبي وما هي الخلفية الفكرية التي أطرته.

خطة البحث:

للإجابة عن الإشكالية بمتغيراتها اقتضت الورقة البحثية أن تمرّ عبر ثلاث محاور رئيسة:

المحور الأول: الخلفية الثقافية لمالك بن نبي؛ تناولنا فيه نشأة مالك بن نبي وحياته العلمية، والخلفية الفكرية التي أطرته.

المحور الثاني: الأسئلة الثقافية الكبرى التي طرحها مالك بن نبي؛ تناولنا فيه المفاتيح الكبرى التي استعملها ما لك بن نبي في معالجته لمشكلة الثقافة.

المحور الأول: نشأة مالك بن نبي وخلفيته العلمية

إنّ موضوع النشأة له أهمية بالغة في فهم السياقات الفكرية للشخصيات محل الدراسة، لأنه يمثل الحضان الأولي الذي ينبت فيه الشخص، وبالتالي فإن دراسة النشأة ضرورية بمكان لمعرفة الإنتاج الفكري للشخص ومختلف التوجهات التي تشكل وتصل شخصية وفكر الإنسان.

وكما أنّ المشروع الإصلاحي يبدأ بتغير الإنسان، فالإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء. كانت هذه من بذور النهضة التي كافح من أجلها ومتن جذورها وطيب سمادها مناضل من أبرز رجال الفكر الإسلامي مالك بن نبي. وعليه أتناول في هذا المحور فرعين؛ حياة مالك بن نبي وخلفيته العلمية، ولعلّ سبب تناولنا لهذا المبحث راجع إلى محاولة معرفة الخلفيات والأطر التي نبت فيها مالك بن نبي والتي من خلال أصبح ينتج فكرا ناضجا استفادت منه العديد من الدول.

أولاً: حياة مالك بن نبي

ولد مالك بن الحاج عمر الخضر بن مصطفى بن نبي بقسنطينة في يناير سنة 1905م، وهو يرى أن ولادته في هذه الفترة من الزمن مكنته من الشهادة على القرن حيث أتاحت له فرصة الاتصال بالماضي والمستقبل يقول: " إن من ولد بالجزائر سنة 1905م يكون قد أتى في فترة يتصل فيها وعيه بالماضي الممثل في أواخر شهوده وبالمستقبل المتمثل في أوائل صائغيه"¹ ومن هنا ندرك السبب الذي جعل مالك يطلق على مذكراته اسم مذكرات شاهد القرن. نشأ مالك في عائلة محافظة فقيرة في المعيشة؛ كان بن نبي شديد القرابة بجده الحجة زوليخة التي تعد

¹ عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012، ص52.

بالنسبة له مدرسة أخلاقية رسخت في ذهنه وفي نفسيته معنى الخير والإحسان وشحنته أخلاقياً¹. ارتحلت عائلة مالك بن نبي المتكونة من الأب والأم ووالدتها والأولاد؛ مالك وأخيه² إلى مدينة تبسة، ونظرا للحالة المزرية التي كانت تعانيها أسرة مالك بن نبي جعل مالك بن نبي ينتقل إلى عمه في قسنطينة للعيش عنده ولم يدم ذلك طويلا حت أرجعته زوجة عمه إلى والديه في تبسة بعد وفاة عمه الأكبر الذي تبناه منذ أمد بعيد يقول مالك بن نبي: " لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر"³.

اعتاد مالك بن نبي في التردد على المساجد منذ وقت مبكر في حياته، بدأ في حفظ المتون والقران الكريم الذي كان بالنسبة له الشاحن والمدعم الذي أشبع روحه¹.

وفي سنة 1923م نجح مالك بن نبي في نهاية المطاف من الدخول إلى المدرسة الرسمية وسعى لتكوين نفسه علميا ومعرفيا، حيث درس الأدب العربي والإسلامي وكان شديد الاهتمام بالمطالعة، الصحافة العربية والفرنسية كجريدة المنتقد والراية والنضال².

كان مالك بن نبي عضوا نشيطا في جماعة الوجدويين فكانت له الجرأة أن قدم يوما محاضرة بعنوان " لماذا نحن مسلمون" في أواخر ديسمبر 1931م وقد أثرت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بينه وبين الانفصاليين⁴.

تزوج مالك بن نبي عام 1931م من امرأة فرنسية أسلمت على يده وأصبح اسمها خديجة كما تعرف في فرنسا على العديد من الشخصيات السياسية التي التقى بهم وتأثر بهم منها؛ المهاتما غاندي (1869- 1948) وشخصية مصالي الحاج موسى نجم شمال إفريقيا حيث نشط معه مسرحية الحاكم الطيب⁵.

¹ ينظر: فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، دار الشرق، الأردن، 1998، ص132.

² ينظر: عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص58.

³ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984، ص18.

⁴ المرجع نفسه، ص221.

⁵ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب، (د ب)، 1984، ص216.

وفي سنة 1972م قام بأداء فريضة الحج وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط في الجزائر كان يلقي بعض المحاضرات هناك، اشتد به المرض وكان قد أصابه السرطان في البروستات، فسافر إلى باريس للعلاج، ثم اشتد عليه المرض هناك نصحه طبيبه بالعودة إلى بلده، عاد إلى الجزائر وبعد ثمانية أيام توفي في 31 أكتوبر 1973 بعد عمر يناهز الثمانية وستين¹.

ثانيا: خلفية مالك بن نبي العلمية

إنّ التكوين الفكري للإنسان يمر بمراحل يرتقي من خلالها حت يصل إلى مرحلة النضج والعطاء، فهو بمثابة البناء، ينطلق من القواعد والأسس ليرتقي إلى الأعلى، ولاسيما إذا توافرت لدى الشخص الاستعدادات الفطرية التي تتيح له السير في طريق بناء الفكر وتطوره التطور السليم، وتيسر له السبل لاكتساب العلمية التي تجعل صاحبها في عداد المفكرين وكان مالك يحمل في نفسه استعدادات فطرية أهله لاكتساب الصفات العلمية التي طبعت إنتاجه الفكري، فكان بذلك مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر².

ومن أبرز تلك الصفات التي كان مالك يتصف بها³:

أ - حب القراءة؛ ومطالعة جميع ما يقع تحت يده من مادة فكرية.

ب - حب المناقشة؛ وممارستها في مجال الأفكار.

ج - تأمل الواقع؛ والتفكير بحل مشكلاته.

د - الصبر والمصابرة؛ الإصرار للوصول إلى الهدف.

ه - الطموح العلمي.

وكما هو معلوم أن أي متلقى فطن له مؤثرات تؤثر على شخصيته تجعله يتكون ويتسلح لينتج ويؤلف؛ مالك بن نبي كذلك تأثر بمؤثرات أثرت في شخصيته وجعلته يؤلف: فما هي هذه

¹ ينظر: عبد الله بن حمد العويس، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص41.

² المرجع نفسه، ص41.

³ ينظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 111، 112، 120.

المؤثرات؟ وفيما تمثلت مؤلفاته؟.

1 - العوامل التي أثرت في نمو شخصيته وفكره

إن الظروف والعوامل المحيطة بشخصية مالك بن نبي أسهمت في تشكيل شخصيته وتكوين فكره، وصقل آرائه¹، ومن بين أهم المصادر التي أثرت عليه:

أ - الثقافة العربية والإسلامية:

تلقى بن نبي في الوسط المدرسي تكويناً علمياً وأدبياً معتبراً، حيث درس التوحيد على يد شيخه "مولود بن موهوب" والفقه والسيرة على يد الشيخ "بن عابد". كما تأثر كثيراً بالحركات الإصلاحية الإسلامية بالجزائر: كحركة الشيخ عبد الحميد ابن باديس وبالحركة الإصلاحية في المشرق ومن أبرز المتأثرين بهم؛ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا يقول مالك بن نبي: "وكان آخر هذه المؤثرات كتابات عثرت عليها في مكتبة النجاح أحدهما الينابيع البعيدة"².

ويعتبر "حمودة بن ساعي" المؤثر الحقيقي في شخصية مالك بن نبي فهو الذي أحدث في فكره تلك القفزة النوعية من دراسة العلوم، كما تعلم منه كيفية التفسير والتأويل للآيات القرآنية الكريم تفسيراً اجتماعياً³.

2 - أثر الثقافة الغربية فيه تكوين شخصيته

تأثر مالك بن نبي ببعض الفلاسفة والمفكرين أذكر منهم: "نيتشه" الفيلسوف الألماني في كتاب "هكذا تكلم زرادشت" وأخذ عن "كانط": فكرة الحق والواجب، كما أخذ عن جون ديوي من كتابه؛ كيف نفكر تلك النزعة البراغماتية التي تؤكد على الجانب النفعي في مجال التربية، كما اطلع على كتابات المستشرقين عن الإسلام مثل كتاب "أوجينغ يونق" الإسلام بين

¹ ينظر: العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، بسكرة، 2014، ص66.

² مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص66.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص67.

الموت، وطلع على كتابات "هنري بيرن" و المؤرخ الفرنسي "جيز...الخ، تحلى مالك بن نبي بثقافة منهجية استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم القضايا بالعالم¹.

3 - مؤلفاته: ترك مالك بن نبي عدة مؤلفات ركزت كلها على إبراز مشكلة العالم المتخلف بما في ذلك العالم الإسلامي، باعتباره قضية حضارة أولا وقبل كل شيء فوضع كتبه جميعا في سلسلة تحت عنوان؛ مشكلات الحضارة²، وتمثلت مؤلفاته فيما يلي:

- الظاهرة القرانية؛ ظهر سنة 1946 في الجزائر.
 - لبيك؛ رواية ظهرت سنة 1947 في الجزائر.
 - شروط النهضة؛ ظهر سنة 1948 في الجزائر.
 - وجهة العالم الإسلامي؛ ظهر سنة 1954 بباريس.
 - فكرة الإفريقية الآسيوية؛ ظهر سنة 1956 بالقاهرة.
 - مشكلة الثقافة؛ ظهر سنة 1959 بالقاهرة.
 - فكرة كومونيلث إسلامي.
 - مذكرات شاهد القرن (الجزء الأول) ظهرت سنة 1965 بيروت.
 - مذكرات شاهد القرن (الجزء الثاني) ظهرت سنة 1970 بالجزائر.
 - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ظهر سنة 1972 بالقاهرة.....الخ.
- بالإضافة إلى مجموعة من المؤلفات والمخطوطات التي لم تظهر³.

¹ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: كامل مسقاوي وعبد الصبور شهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987، ص 69_71.

² ينظر: موسى لحرش، استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006، ص60.

³ ينظر: عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص31_32

المحور الثاني : الأسئلة الثقافية الكبرى التي طرحها مالك بن نبي

إنّ موضوع الثقافة من المواضيع المهمّة التي شغلت بال المفكرين والفلاسفة المسلمين وغيرهم طيلة مدة من الزمن، كونها ظاهرة تمس المجتمع وتحركه وفق أطرها، مالك بن نبي واحد من الفلاسفة الذين شخصوا الثقافة، حيث نظر إلى الثقافة واعتبرها مشكلة تطرح ضمن ثلاث أوضاع مختلفة¹:

1 - عندما نتساءل: كيف تتكون ثقافة معينة؟ يكون سؤالنا متضمنا الجواب عن مرحلة تاريخية معينة.

2 - وعندما نتساءل: ما هو الدور التي تؤديه ثقافة معينة؟ أو ما هي الصورة التي تبرز فيها هذه الثقافة؟ نجدنا إزاء وجهة نظر أخرى للمشكلة.

3 - أما عندما نتساءل: كيف يتم إعداد ثقافة معينة؟ فإننا نكون إزاء زاوية نظر مختلف عن الوجهتين السابقتين.

انطلاقا من هذه الأسئلة الثلاث التي طرحها مالك بن نبي عن مشكلة الثقافة؛ يتبين من منظورنا أنّ مالك بن نبي يعتبر الثقافة قضية محورية تحتوي على مجموعة من المداخل المفتاحية؛ والسؤال عن تلك المداخل في حد ذاته يعتبر طرحا حصّ مشكلة الثقافة، في هذا المحور نتناول الأسئلة الثقافية التي طرحها مالك بن نبي وإجاباته عنها، وتكون معالجة ذلك في عنصرين موضحين على النحو الآتي:

العنصر الأول: مفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي

العنصر الثاني: كيفية إعداد الثقافة في المجتمع الجزائري من منظور مالك بن نبي

أولا: مفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي

إنّ لمالك بن نبي نظرة جوهرية في الأمر، إذ يرى أنّ اللغز لا يكمن في تحديد المفهوم ولا في اختلاف تركيبة المجتمعات، بل الأمر برمته متعلق كليا بالهدف من وراء الدراسة، فإن كان

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص 69.

الفكر الماركسي أو الفكر الغربي قد طرح سؤال: ماهي الثقافة؟ بهدف فهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين، فإن الهدف من طرح نفس السؤال في العالم العربي والإسلامي يأخذ مجرى آخر؛ إذ هو يتصل بمحاولة خلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد، إلا أنه بالرغم من ذلك لا يستبعد استعمال وجهات النظر الغربية في دراسة الثقافة العربية الإسلامية، لكن ليس أكثر من اعتبارها توجيهات قيمة، وعلى هذا الأساس كان المفهوم الذي وضعه مالك بن نبي للثقافة محملاً برؤى جديدة لم نألفها من قبل¹، كما أن مالك بن نبي في كتاباته لم يحدد مفهوما واحدا للثقافة وإنما ظل يطرح عدة مفاهيم نعرضها على النحو التالي:

1 - مفهومه للثقافة عامة:

رأى مالك بن نبي أن مفهوم الثقافة في إطارها العام ينحصر بين نوعين من التحديد؛ "سلبى يفصلنا عن رواسب الماضي وإيجابى يصلنا بمقتضيات المستقبل"²، والمقصود هنا أن التفكير في ثقافة مستقبلية تستجيب لمقتضيات عصرنا لا يعني أبدا التخلي عن ثقافتنا السابقة ولا يعني محوها، إنما فقط تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما فيها من عوامل هدامة وحشو لا فائدة منه حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة³.

والأمر سيان بالنسبة للنوع الثاني من التحديد، الذي لا يعني به ابتكار منهج جديد للتفكير، أو خلق عقلية جديدة، بل هو ببساطة نتاج التحديد الأول بالإبقاء على العناصر الجوهرية التي تكون ضرورية للثقافة وتكييفها بما يقتضيه المستقبل.

مما سبق ذكره جاء تعريف مالك بن نبي للثقافة في إطارها العام على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولى في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا المنحى هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"⁴، نفهم

¹ لوييزة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب، كلية الآداب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2014_2015، ص30.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص86.

³ لوييزة لعميري، مرجع سابق، ص30.

⁴ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص89.

من هذا المفهوم أن المحيط هو الذي يصنع ثقافة الإنسان، كما نلاحظ أن هذا المفهوم هو عام يطرحة حتى الغربي.

2 - مفهوم الثقافة في التاريخ:

كان بن نبي قد اقترح لأول مرة تعريفا للثقافة في كتاب "شروط النهضة"، هو تعريف تاريخي من أجل فهم الثقافة، يقول: "إنّ الثقافة بما فيها الفكرة الدينية التي هي أساس الملحمة البشرية كلها، ليست علما لكنها جوّ يتحرك فيه الإنسان الذي يحمل في داخله حضارة، إنها وسط يكون فيه كل شيء مؤشرا على المجتمع السائر باتجاه مصير واحد بتظافر جهود الراعي والحداد والفنان والعالم ورجل الدين، وعملية التركيب الحادثة بين العادات والمواهب والتقاليد والأذواق والأعراف والسلوكات والعواطف، تلك العملية هي التي تعطي وجها للحضارة، وتعطيها قطبيها المميزين، مثل عبقرية كعبقريّة ديكارت ونفس كنفس جين دارك"، فلا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، لأن الشعب الذي فقد ثقافته حتما فقد تاريخه¹.

3 - مفهوم الثقافة في التربية:

بعد هذا ينتقل مالك بن نبي إلى تحديد آخر للثقافة في أبرز المجالات الحيوية في المجتمع وهو التربية، محاولا تبين مدلولها وتحديد وسائلها وغاياتها، فيقول: إذا حاولنا أن نحدد الثقافة بمعناها التربوي، فيجب أن نوضح هدفها وما تتطلبه من وسائل التطبيق، فأما الهدف فيتمثل في أن الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون الأخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وعلى الأخص إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراد من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية"، و انطلاقا من هذا القول فإن الثقافة تشتمل على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعا توحد فيه بينهما مقتضيات مشتركة وهي تهتم في معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى ذلك فإن الثقافة تلعب دورا في شؤون الفرد وبناء المجتمع.

¹ نور الدين بوكروح، جوهر فكر مالك بن نبي، ط1، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2016، ج1، ص185.

ولكي يوضح لنا أكثر محورية الوظيفة التي تقوم بها الثقافة في حياة الفرد والمجتمع مثل لها بوظيفة الدم، كونه يتركب من الكريات الدموية الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسد، ونفهم من هذه الأفكار أن تطبيق الثقافة هو أن تتحول إلى أسلوب حياة في المجتمع بحيث تؤثر على كافة طبقاته الاجتماعية دون تمييز أو تفرق، لأن جميع الأفراد بالنسبة للمجتمع سواسية يؤثرون فيه ويتأثرون به، والأمر هنا لا يتعلق بكيفية تشكل الثقافة في مجتمع من المجتمعات، ولا يتعلق أيضا بالتأمل في الثقافة لتحديد دور وظيفتها، بل السؤال الذي تدور في فلكه اهتمامات بن نبي هو عن كيفية إعداد ثقافة معينة؟ أو كيف السبيل إلى جعل تعريف الثقافة يتحرر من قيود التنظير لينتقل إلى مرحلة التطبيق بجعله منهجا أو برنامجا تربويا يمكن تبليغه لجميع الأفراد، لتحقيق هدف أسمى يتمثل في إعادة ثقافتنا إلى مسارها التاريخي لتثبت وجودها باعتبارها حياة المجتمع الذي بدونها يصبح مجتمعا ميتا، ولا شك أنه لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق التربية¹.

ثانيا: كيفية صناعة الثقافة في الجزائر من منظور مالك بن نبي

طرح مالك بن نبي سؤالا جوهريا حاول من خلاله تشخيص الواقع الجزائري في فترته من خلال إلقائه لمحاضرة باللغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ 10-01-1964م، وبالعربية في مدينة قسنطينة بتاريخ: 30-01-1964م، قائلا: كيف يتم إعداد ثقافة متلائمة مع سلوك الجزائري الفعال؟ شخص مالك بن نبي مشكلة الثقافة في الجزائر وأعطى من خلالها عدة حلول من بينها:

01 - الثقافة نتاج الكل لا الجزء:

يقول مالك بن نبي: " لقد تأكد لنا من خلال التجارب التي سلف أن أشرنا إليها في دراستنا هذه أن السلوك الذي ندعوه بالسلوك الفعال، لم يتم تشكيله داخل المدرسة لأن التعليم الفرنسي لم يمنح للجيل الجزائري الذي سبق جيل الثورة عادات الفعالية التي نجدها ضمن السلوك الذي شاهدناه في مواضع أخرى، وإذن فإن السلوك الأخير لا يتشكل على مقاعد المدرسة، ولكن

¹ لوييزة لعميري، مرجع سابق، ص35.

ضمن الإطار الاجتماعي - الثقافي الذي يحيط بالفرد"¹، نفهم من هذا أن مالك بن نبي استوعب خطة الاستعمار الفرنسي وخطته في تغيير الثقافة الجزائرية عن طريق المدرسة في تلك الفترة، كما نفهم أن المدرسة هي جزء في صناعة الثقافة وليس كل وإنما المجتمع أو المحيط بكافة جزئياته هو الباعث على انتاج الثقافة التي تنطلق من منطلقات الرؤية الكونية التوحيدية.

02 - التركيز على تكريس مجموع الإطار الثقافي:

لقد حاول مالك بن نبي أن يجعل الثقافة هي التي تؤطر أفراد المجتمع وكل الأفراد يسرون وفقها، يقول: " ولكي نقوم بإعداد ثقافة يجب أن نركز انتباهنا على مجموع الإطار الثقافي، على المنوال نفسه الذي يتم فيه انجاز ذلك من خلال بعض التجارب الراهنة، وخاصة بالجمهورية الصينية، حيث شرع في تغيير البيئة على مستوى قد يثير دهشة الملاحظ الغربي أحيانا، لاسيما إذا كان قد أنس الوجه التقليدي للصين القديمة، وذلك عندما يشاهد على سبيل المثال: بائع الفطائر وهو يرتدي الكساء الأبيض النقي، ويتناول أقراص بضاعته بملاقط من النيكل، وكأنه أحد أطباء الجراحة"² وهذا المثال يدل على أن الثقافة موجودة والكل ملزم بالانسجام معها.

03 - تنقية المحيط من الثقافات الدخيلة:

لقد طرح مالك بن نبي فكرة إعداد الثقافة في محيط نقي خال من الرواسب الثقافية الوافدة، لأن تهئية الأرضية هي سبيل أمثل لبناء ثقافة متينة يقول: " ومع هذا يتعين علينا أن نلح على أهمية مظهر الثقافة السليبي، وخاصة عندما يجب على أحد المجتمعات أن يشرع في التخلص من رواسبه البالية، وفي وضع الأسس التي يقوم عليها نظام جديد، كما كان يفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما كان يمسك بمعوله ويحطم أوثان المدينة التي ولد فيها من بلاد الكلدانيين، لكي يرسى دعائم الدعائم الراسخة لعلم التوحيد"³، ويؤكد ذلك في نفس السياق قائلا: " فقد علمتنا

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص89

² مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص81.

³ المرجع نفسه، ص82.

تجربتنا بالجزائر أنّ الثقافة لا تستورد بنقلها من مكان إلى آخر، بل يجب خلقها في المكان نفسه، لأن البيئة ليست إحدى لوحات الرسم التي نفكها من مسمار الجدار الذي علقت عليه، لكي ننقلها إلى منزلنا"¹

04 - فرض الأسلوب الإسلامي التوحيدي والدفاع عليه:

بعد تنقية المجتمع من الرواسب الثقافية السلبية، وجب بعد ذلك فرض الرؤية الإسلامية التوحيدية كمنطلق والدفاع عليها من أسهم الثقافات السلبية الوافدة عليها، يقول مالك بن نبي: " أما بالنسبة إلى مجتمع تاريخي، فإن دفاعه عن أسلوب حياته، هو دفاع عن شخصيته، وعن مبدأ إدماج أفرادها في نطاقه، وتحديد علاقاتهم به، بحيث يصبحون بمثابة التعريف به، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم"²، من خلال قوله هذا نفهم أنه يجب على كل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها وفق مبدأ التكامل والتطور.

05 - خلق اللحمة الاجتماعية وربطها بالقيم الأخلاقية:

لقد ركز مالك بن نبي كثيرا في كتاباته على قضية تماسك المجتمع وقوته، وكيف لهذا الأخير من دور في ردّ الاستعمار، أو في قبوله، وهو يرى تماسك المجتمع سبيل أمثل لمجابهة الاستعمار بشتى أساليبه، كما أنه يعطي البدائل في مسألة إعداد الثقافة عندما أكد على ضرورة وجود اللحمة الاجتماعية ويشترط ربطها بالقيم الأخلاقية، يقول: " وإذا كان الوفاء للقاعدة المتبعة، والتعلق بالقيمة الأخلاقية يجب أن يعمل على شد وحدتها الملتحمة، في ربطهما للفرد بالجسم الاجتماعي... فشعيرة الحق يجب أن تسود في حياة شفافة متخلصة من أوشاب زواياها المعتمة حيث تتلاقى الأرواح الخبيثة للتأمر على أسلوبها".

06 - تحقيق الغلبة العملية واستغلال عنصر الزمن:

أكد مالك بن نبي كثيرا في كتاباته على قوة الذات الفعالة، يقول: " ويتعين علينا نحن أن نتولى بأنفسنا فرض المعايير ضمن وجوه نشاطنا، مع إدماجنا لمفهوم الزمن داخلها؛ إذ لا يكفي

¹ المرجع نفسه، ص 83.

² المرجع نفسه، ص 84.

أن تقتصر على مجرد القيام بصنع شيء من الأشياء، وإنما يتعين أن تتوفر في إنجازها في أقصر فترة ممكنة من الزمن"¹.

07 - تحويل الثقافة إلى طرح بيداغوجي مركب:

سعى مالك بن نبي إلى تكريس مبدأ تعليم الثقافة المركبة وتدريسها وفق طرق بيداغوجية فعّالة، يقول: " فالثقافة التي يتم تصورها في صيغة بيداغوجية هي كل هذا جميعا: فهي تركيب متآلف للأخلاق، والجمال، والمنطق العملي والفن الصياغي"².

الخاتمة:

مما سبق ذكره توصلنا للإجابة عن الإشكالية التي طرحناها في المقدمة ومفادها أن المفكر الجزائري استطاع أن يشخص مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي وأن يعطي عدة حلول تساهم في بناء ثقافة متينة خالية من الرواسب الثقافية الواردة علينا من الغرب ولعل قوة تشخيصه راجعة إلى كونه عايش الثقافة الغربية وعرف تأزماتها وغايات ترويجها للعالم الإسلامي.

نتائج البحث:

توصلنا من خلال هذا البحث إلى العديد من النتائج أبرزها:

- مالك بن نبي نسق فكري يحتاج إلى تفعيل كتاباته في الشق الأكاديمي الجزائري.
- الثقافة تركيبة كلية في المجتمع، هي المحيط الذي يعيش فيه الأفراد.
- الثقافة نتاج منطلق الرؤية الإسلامية التوحيدية.
- لكي نصنع الثقافة في الجزائر يجب أن نقوم بتنقية المحيط من الثقافات الغربية السلبية فيه.
- تفعيل منطق العمل، واستغلال الوقت خاصيتين من شأنهما تقوية المجتمع وسيادته.

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 88.

² المرجع نفسه، ص 89.

توصيات البحث:

نوصي الجهات المكلفة بصناعة المناهج والبرامج التعليمية بإعادة النظر في كتابات مالك بن نبي وتفعيلها كمقررات دراسية تلقن للطلبة، وتفعيلها من قبل الجهات السياسية في المجتمع وكل ذلك عزمٌ في إعادة بناء ثقافة العالم الإسلامي والعربي من جديد بعد جملة التحديات التي أصبحت تهدده من الفينة إلى الأخرى والتي هي بحاجة إلى فكر واقعي مستمر يواجهها.

مصادر ومراجع البحث:

أ - المصادر:

- 01 - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984.
- 02 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: كامل مستقوي وعبد الصبور شهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987.
- 03 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013.

ب - المراجع:

- 01 - عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012.
- 02 - فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، دار الشرق، الأردن، 1998.
- 03 - عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب، (د ب)، 1984.
- 04 - العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، بسكرة، 2014.
- 05 - موسى لحرش، استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006.
- 06 - لويظة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب، كلية الآداب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2014-2015.
- 07 - نور الدين بوكروح، جوهر فكر مالك بن نبي، ط1، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2016، ج1.
